الفصل الثاني

الإنسانية

ومن خصائص الإسلام العامة بعد الربانية: الإنسانية.

فالإسلام يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصيلة في معتقداته وعباداته، وتشريعاته وتوجيهاته، إنه دين الإنسان.

بين الربانية والإنسانية:

وربما خيل لكثير من الناس ـ لأول وهلة ـ أن هناك تناقضاً بين إثبات خصيصة «الربانية» وخصيصة «الإنسانية» في وقت واحد.

فالظاهر والمفهوم والمفترض في أذهانهم أن ثبوت إحدى الخصيصتين ينفي الأخرى، ويطردها، شأن كل متضادين لا يجتمعان، فإذا وجد الله لم يبق مكان للإنسان!

وإذا كنا قد قلنا في خصيصة «الربانية»: إنها تعني ـ من ناحية ـ ربانية الغاية والوجهة. على معنى أن حسن الصلة بالله تعالى وابتغاء مرضاته هو غاية الانسان وهدف الاسلام.

كما تعني ـ من ناحية أخرى ـ ربانية المصدر والمنهج، على معنى أن الإسلام منهج إلهي، صاحبه وشارعه هو الله وحده، وإنما الرسول مبلغ عنه ـ فمعنى هذا أن لا موضع للإنسان.

وأين يكون مكان الإنسان ما دام الله هو الغاية. ومرضاته هي الهدف والوجهة، ومادام الله أيضاً هو واضع المنهج إلى تلك الغاية؟

فإذا أضفنا إلى ذلك وجوب الإيمان بقدر الله تعالى، فقد انتفى - في نظر هؤلاء - كل دور للإنسان.

إن إثبات قدر الله يلغي دور إرادة الإنسانية، وإثبات شرع الله يلغي دور التفكير الإنساني، وماذا يبقى للإنسان إذا ألغى دوره إرادياً وفكرياً؟ وهل الإنسان إلا إرادة وفكر؟!!.

هذا ما يخالج تفكير بعض الناس، الذين يفهمون قدر الله وشرعه، ودور الإنسان معهما، ذلك الفهم المغلوط، معتمدين على النظرة «الجبرية» للقدر، والنظرة «الظاهرية» للشرع، وكلتاهما خاطئة كما سنبين بعد.

ليس الإنسان نداً لله:

على أن الخطأ الأول والأساسي في موقف هؤلاء النظر إلى الله والإنسان كأنهما ندان متقابلان، وهؤلاء ينسون ما هو الله؟، وما هو الإنسان؟

والحقيقة التي لا ريب فيها أن الله هو صاحب هذا الكون، وربه، ومدبره (قل أغير اللهِ أبغي رباً وهو ربُّ كلّ شيء)[1].

والإنسان هو مخلوق حادث من مخلوقات الله جل شأنه، ولا يتصور أن يكون المخلوق نداً للخالق، ولا الحادث مضاهياً للأزلي، ولا الفاني كفواً للأبدي الباقي: (قل هو اللهُ أحد، الله الصمد. لم يلد ولم يُولد. ولم يكن له كفواً أحد)[2].

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق ذو مكانة خاصة، وله شأن ودور في هذا الوجود، والذي منحه هذه المكانة، وجعل له هذا الشأن والدور هو خالقه ذاته، هو الله تبارك وتعالى.

لننظر للإنسان إذن على هذا الأساس. وبهذا المنظار.

إنه مخلوق، ولكنه أكرم المخلوقات على الله تعالى، وهو الوحيد من بينها

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) سورة: الإخلاص.

ـ على كثرتها ـ الذي اختاره الله ليكون خليفته في الأرض. وكرمه بالعقل، وهداه السبيل وعلمه البيان، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً.

لا تنافي بين الربانية والإنسانية:

إذا عرفنا ما ذكرناه من حقائق اتضح لنا:

أن الإسلام مع ربانيته في غايته ووجهته هو إنساني أيضاً في الغاية والوجهة ومن هنا نقول: إن للإنسان مكاناً، أي مكان في غايات الإسلام العليا، وأهدافه الكبرى، مع تقرير غايته الربانية، وإبرازها وتثبيتها، إذ لا تنافي بين الغاية الربانية، والغاية الإنسانية، بل هما متكاملتان..

أجل. لا تنافي ـ في نظر الإسلام ـ بين الربانية والإنسانية، فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التي قام عليها الإسلام.

فالله هو الذي كرم هذا الإنسان، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، وسخر له ما في الموات، وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وإذا كان مصدر الإسلام «ربانياً» فإن «الإنسان» هو الذي يفهم هذا المصدر، ويستنبط منه، ويجتهد على ضوئه، ويحوله إلى واقع تطبيقي ملموس.

وإذا كانت الربانية هي غاية المجتمع المسلم كما هي غاية الفرد المسلم فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

وإذا كانت الربانية هي رسالة المسلم، فإن أهداف هذه الربانية هي تحقيق الخير للإنسان والسمو به، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط.

والمعاني الربانية التي توجه المسلم، من الإيمان والتوحيد والإنابة والرجاء والخوف.. الخ، هي في حقيقتها معان إنسانية، لأنها جزء من كيان الإنسان

كما فطره الله، وهي سر من أسرار قوله تعالى: (ونفختُ فيه من روحي)[1].

وفكرة الإسلام: أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ربانياً حقاً، دون أن يكون إنسانياً، كما لا يستطيع أن يكون إنسانياً حقاً، دون أن يكون ربانياً.

إن الربانية - باعتبارها غاية ووجهة - تقتضي إخلاص النية والعمل والوجهة لله وحده، وجعل رضوانه ومثوبته نهاية المقصد، وغاية السعي وراء كل حركة، وكل قول أو عمل.

ولكن المقصود بهذا كله هو تحرير الإنسان، وإسعاد الإنسان، وتكريم الإنسان وحماية الإنسان، والسمو بالإنسان.

فهذه كلها أهداف وغايات يحرص الإسلام عليها، ويسعى إليها، ويعمل بكل وسيلة على بلوغها والاجتهاد في تحقيقها.

إيجابية الإنسان أمام القدر الإلٰهي:

والذي يراه الدارس للإسلام أن إثبات القدر الإلهي لا ينفي إيجابية الإنسان فوق هذه الأرض ودوره في هذا الكون.

فإن الله الذي خلق الإنسان هو الذي منحه العقل، ومنحه الإرادة، ومنحه القدرة، فهو بالعقل يفكر، وبالإرادة يرجح، وبالقدرة ينفذ، وهذه كلها منح من الله للإنسان. فهو قادر بقدرة الله، ومريد بإرادة الله. وهذا معنى: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)[2] فالإنسان يشاء، لأن الله شاء له أن يشاء، وهو معنى: «لا حول ولا قوة إلا بالله، أي: أن الإنسان له حول وقوة، يجلب بها النفع، ويدفع بها الضرر، ولكن حوله وقوته ليسا من ذاته ولا بذاته، بل حوله وقوته بالله، ومن الله.

وعلى هذا الأساس أمر الله الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه

---

(١) الحجر: ٢٩.
(٢) الإنسان: ٣٠.

الكتب، ووضع نصب عينيه الثواب والعقاب، ولولا أن الإنسان ذو إرادة وقدرة، ما كان لتحميله أمانة التكاليف معنى، ولا كان ثوابه وعقابه مما يوافق العدل الإلهي، والحكمة الإلهية، ولا كان هناك معنى لاستخلافه في الأرض، واستعماره فيها كلما قال تعالى: (هو أنشأكُم من الأرضِ واستعمركم فيها)[1]، أي: طلب إليكم عمارتها.

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق متميز بمواهبه، وملكاته، وقواه، الروحية، والعقلية، والمادية، التي أهله الله بها ليحمل مسئولية الخلافة وأمانة التكاليف، وهي أمانة بلغت من العظم والثقل مبلغاً عبر عنه القرآن بهذه الصورة الفنية البليغة حين قال: (إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرضِ والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقنَ مِنها وحملها الإنسان)[2].

إن الإنسان مخلوق مكلف مسئول، وعليه أن يكدح حتى يلقى ربه، فيجزيه بكدحه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ولهذا وجه الله إليه الخطاب بقوله: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فمُلاقيه)[3].

ولا ينبغي للإنسان أن يغره شي. أو يخدعه خادع عن ربه وما له عليه من حق، وإن كان نفر من بني الإنسان للأسف غرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، واستحقوا أن يناديهم ربهم بهذا النداء العاتب: (يا أيها الإنسانُ ما غركَ بربكَ الكريم. الذي خلقك فسواكَ فعدَلَكَ. في أي صورة ما شاء ركَّبك)[4].

بين العقل الإنساني والوحي الإلهي:

وإذا كان الإسلام منهجاً إلهياً وضعه رب الناس للناس. فليس معنى هذا هو إلغاء دور الإنسان أمام هذا المنهج، وتنحيته من طريقه، والحكم

---

(١) هود: ٦١.
(٢) الأحزاب: ٧٢.
(٣) الانشقاق: ٦.
(٤) الانفطار: ٦-٨.

عليه بالسلبية المطلقة تجاهه، فليس له إلا التلقي والتنفيذ والتسليم، دون أن يقول لِمَ؟ أو كيف؟ إذ لا تكافؤ بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، فإذا قال الوحي كلمته، فليس على العقل إلا الإذعان والتسليم.

وهذا في الواقع غير سليم.

فإن القدر الإلهي لم يلغ دور الإنسان، وفاعليته في الكون، مع وجود يد الله تعالى فيه، ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الإلهية، والإرادة الإنسانية، أو بين قدرة الخالق، وقدرة المخلوق.

وكذلك لا يلغي الوحي الإلهي دور العقل الإنساني، وإيجابيته في فهم الوحي، والاستنباط منه والقياس عليه، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية.

إن وجود النص الإلهي المقدس، ليس عائقاً للعقل عن التحليق والإبداع فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته، ويبرز قدراته.

لقد ترك الوحي للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة:

(أ) ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود:

الحقيقة الأولى: وجود الله ووحدانيته ـ فوجود الله ـ كما تهدي إليه الفطرة السليمة ـ يقتضيه كذلك النظر الصحيح، والعقل الصريح، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى: (إن في خلق السماوات والأرضِ واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)[1].

(أم خُلِقُوا من غير شيء أم هُم الخالقون. أم خَلَقُوا السموات والأرض، بل لا يُوقنون)[2].

---

(١) آل عمران: ١٩٠.

(٢) الطور: ٣٥، ٣٦.

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى: (لـو كـان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَـدَتَـا، فسبحـان الله ربِّ العـرش عما يَصِفون)[1]. (أمِ اتَّخذوا من دونه آلهةً، قل هاتوا بُرهانكُم)[2].

وفي موضع آخر يقول:

(ما اتَّخذَ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إله، إذن لذهب كلُّ إله بما خلَق ولعلا بعضُهم على بعض)[3].

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله. العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي، إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء الإسلام: إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم، ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى، وألا يدعهم في بحر لجي من الجهالة والعمى والغي، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق مبلغين عنه.

والعقل بعد أن يعلم ذلك، لا يسلم لكل من ادعى أنه رسول من الله، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله، فيطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والعقل هو الذي يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية، التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقاً وبين مظاهر الخفة، والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين.

والعقل هو الذي يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه، وأنها تصديق من الله له في دعواه، فهي بمثابة قوله: «صدق

---

(١) الأنبياء: ٢٢.
(٢) الأنبياء: ٢٤.
(٣) المؤمنون: ٩١.

عبدي فيما يبلغ عني» والله تعالى لا يصدق الكاذب، لأن تصديق الكاذب كذب، والكذب محال على الله تعالى. كل هذه مقدمات عقلية محض ولولاها ما ثبت الوحي أصلاً، ولا قام الدين رأساً.

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدعي الرسالة، ويتأمل في صفاته وأخلاقه، وأقواله، وأعماله، ومدخله، ومخرجه، ليعرف منها: هل هو أهل لاصطفاء الله، أم ليس كذلك فيرفضه ويعرض عنه، ومن أجل ذلك احتكم القرآن في إثبات صدق رسالة محمد (ﷺ)، إلى العقول المفكرة وحدها، فقال في صرامة ووضوح: (قل إنما أعظُكُم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفُرادى ثم تتفكروا، ما بصاحِبكم من جِنَّة، إن هو إلا نذير لكم بين يديْ عَذَابٍ شديدٍ)[1].

وقال يخاطب الرسول: (قل لو شاءَ الله ما تلوتُهُ (أي القرآن) عليكُم ولا أدراكُم به، فقد لبِثتُ فيكُم عُمراً من قبله، أفلا تعقلون)[2].

(ب) وترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص، فيفرع على الأصول، ويقيس على الفروع، ويستنبط الأحكام، ويكيف الوقائع، ويرى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد، ورفع الحرج وتحقيق اليسر، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان.

ولا عجب بعد، أن اختلفت المشارب، وتعددت المذاهب، وتنوعت الأقوال، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي، ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي.

(جـ) وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه، وفتواه في كثير من الأعمال، التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرام، ولم يغفل شأنه، بجانب الوحي، كمصدر للإلزام الأدبي، ومقياس للحكم الخلقي.

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) يونس: ١٦.

فإن الشريعة نفسها، بعد أن بينت الحلال الصريح، والحرام الصريح تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف، ويشتبه فيها الحكم، وفوضت لكل امرىء أن يستفتي فيها قلبه، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه، أخذا بالأحوط والأسلم. هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه»[١]، ويقول: «استفت قلبك واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وان أفتاك الناس وأفتوك»[٢].

(د) ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء، صاعداً إلى الأفلاك، وهابطاً إلى الأرض، ومتأملاً في النفس: (قُل انظُروا ماذا في السمواتِ والأرض)[٣]، (وفي الأرضِ آيات للموقنين. وفي أنفُسِكُم أفلا تُبصرون)[٤].

ترك له أن يكشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع، وأن يسخر من قواه ما قدر عليه فكل ما فيه سخره الله لمنفعته: (وسخَّر لكُم ما في السمواتِ وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرُون)[٥]، (وسخَّر لكُم الفُلكَ لتجري في البحر بأمره، وسخَّر لكُم الأنهار. وسخر لكُم الشمسَ والقمرَ دائبين، وسخر لكم الليلَ والنهارَ. وآتاكُم من كلِّ ما سألتمُوه)[٦].

(هـ) ترك له أن يبتكر، ويخترع في وسائل الحياة، وأمور الدنيا ما شاء، ما دام ملتزماً حدود الحق والعدل، «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» (ولا تنْسَ

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الإمام أحمد، والدارمي بإسناد حسن.
(٣) يونس: ١٠١
(٤) الذاريات: ٢٠، ٢١.
(٥) الجاثية: ١٣.
(٦) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

نصيبَكَ من الدُّنيا)[1].

(و) ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين: (فاعتبروا يا أولي الأبصار)[2]، (أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لَهم قُلوب يعقِلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنَّها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور)[3]، (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين)[4] (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[5] «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»[6].

وبهذا كله يتبين أن الوحي الإلهي لم يشل الفكر الإنساني ولم يجمده، بل كان له هادياً ومعيناً في بعض المجالات، وترك له الحرية الكاملة والاستقلال المطلق في مجالات أخرى، وإنها لكثيرة ورحيبة.

القرآن.... كتاب الإنسان:

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنه، كتاب الإنسان. فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

إن كلمة «الإنسان» تكررت في القرآن ٦٣ ثلاثاً وستين مرة، فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل «بني آدم» التي ذكرت ست مرات، وكلمة «الناس» التي تكررت ٢٤٠ مئتين وأربعين مرة في مكي القرآن ومدنيه.

ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أن أول ما نزل من آيات القرآن على رسول الإسلام ـ محمد ﷺ ـ خمس آيات من سورة العلق ذكرت كلمة «الإنسان» في اثنتين منها، ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان.

---

(١) القصص: ٧٧.
(٢) الحشر: ٢.
(٣) الحج: ٤٦.
(٤) الأحقاف: ٤.
(٥) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.
(٦) من حديث رواه الترمذي، وابن ماجه.

هذه الآيات هي: (اقرأ باسم ربِّكِ الذي خلق. خلقَ الإنسانَ من علق. اقرأ وربُّك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسانَ مالم يعلم)[1].

دلالة الآيات الأولى من الوحي:

(اقرأ باسم ربك الذي خلق).

إن هذه الآيات الكريمة التي تكتب في أقل من سطرين، والتي بدأ بها الوحي الإلهي تاريخاً جديداً للبشرية، تعبر أوضح التعبير عن نظرة الإسلام إلى الإنسان وعلاقته بالله تعالى، وعلاقة الله تعالى به، إنها خطاب لمحمد (ﷺ)، ولكل إنسان يفهم الخطاب من بعده.

الإنسان في هذه الآيات مأمور أن يقرأ، والقراءة هنا رمز لكل عمل نافع يقوم به الإنسان، وإنما خص القراءة بالذكر، لأنها نقطة الانطلاق للإنسان. ومفتاح رقيه، ولأن العمل في الإسلام يجب أن يقوم على العلم،والعلم مفتاحه القراءة.

وأمر الإنسان بالقراءة معناه قدرته على أن يفعل، وقدرته على أن يترك أيضاً. وهذا يعني إثبات مسؤوليته، ودور إرادته. فالآلة لا تؤمر ولا تنهى.

ولم يؤمر الإنسان هنا بمجرد قراءة، بل بقراءة مقيدة «باسم ربه» الخالق، والقرآن هنا حريص على التعبير عن ذات الله سبحانه وتعالى في هذا المقام باسم «الرب» مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو الإنسان، وذلك لما يوحي به اسم الرب من معاني التربية والرعـاية والترقية في مدارج الكمال، وما توحي به الإضافة والخطاب من القرب والاختصاص والتكريم.

وقد تكرر اسم الرب هكذا مرتين، مع وصفه مرة بالخالقية، ومرة بالأكرمية (وربُّك الأكرم) فعلاقة الإنسان ليست بمجرد رب، ولا برب كريم فقط، بل برب أكرم بل بالرب الأكرم على الأطلاق. لأنه يعطي بغير حساب، وبغير عوض ولا مقابل.

---

(١) العلق: ١ـ٥.

وذكر القرآن من دلائل أكرميته تعالى أنه: (الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم)، فالله تعالى بالنسبة إلى الإنسان «معلم» والإنسان متعلم ما لم يكن يعلم هذه ميزته استعداد للتعلم بالقراءة والكتابة بالقلم.

هذا أول نص نزل به الوحي الإلهي على محمد ﷺ، وهو نص فريد ورائع حقاً، فقد حرص على تأكيد أمور معينة من أول لحظة منها:

١ ـ إن الإنسان مخلوق مكلف.

٢ ـ العناية بشأن الإنسان حيث ذكر مرتين.

٣ ـ أول ما أمر به الإنسان القراءة.

٤ ـ تعظيم شأن القرآن حيث أمر بها مرتين.

٥ ـ أول أداة ذكرها الوحي: القلم.

٦ ـ أول ما وصف الله به نفسه: الرب ـ الخالق ـ الأكرم ـ المعلم.

٧ ـ أول ما وصف به الله الإنسان: القدرة على التعلم.

محمد.... الرسول الإنسان:

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جسد الله فيه الإسلام، وجعله مثالاً حياً لتعاليمه، وكان خلقه القرآن، نستطيع أن نصفه بأنه «الرسول الإنسان»، وسيرته ليست سيرة إله، ولا بعض إلـه، ولا ملاك متجرد من اللحم والدم، بل هي سيرة النبي الإنسان.

والقرآن الكريم حريص كل الحرص في شتى المناسبات على تأكيد إنسانية الرسول محمد ﷺ، بمثل قوله تعالى: (قل إنما أنا بَشَر مِثلُكم يُوحَى إليَّ أنما إلهكُم إله واحد)[1].

ويرد على المشركين المتعنتين من مقترحي الآيات الكونية ما يتصور منها وما لا يتصور، مثل أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل وعنب، أو يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.. الخ.

(١) الكهف: ١١٠.

هذه السلسلة من المقترحات السخيفة العجيبة، فيطلب من الرسول أن يرد عليهم بهذه الكلمة الموجزة (سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً)[١].

ولما استبعد بعضهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، يمشي على الأرض وافترضوا أن يكون الرسول ملكاً ينزل من السماء، رد عليهم القرآن فقال: (قل لو كانَ في الأرضِ ملائكة يمشون مطمئنين، لنزَّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً)[٢].

ولهذا رأيناه ﷺ يأكل ويشرب ويتزوج وينجب، ويفرح ويحزن، ويرضى ويسخط، ويصيب ويخطىء، ويذكر وينسى، ويمارس ما يمارسه كل بشر عادي إلا ما كان فيه إثم أو دناءة مما لا يليق بمنصب الرسالة، وبهذا صلح أن يكون قدوة للبشر كل البشر: (لقد كان لكُم في رسول الله أسوة حسَنة)[٣].

الجانب الإنساني في دعوات الرسل:

ويلفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن الأنبياء الذين بعثهم الله دعاة إلى توحيده، وكان أول نداء لهم إلى أقوامهم (أن اعبُدوا الله ما لكُم من إله غيره)[٤]، لم تهمل دعوتهم الجانب الإنساني، بل عملت على إصلاحه، ومقاومة الفساد والانحراف في الحياة البشرية.

فهذا هود عليه السلام ـ كما ينكر على قومه الشرك بالله ـ ينكر عليهم العبث، والانحراف، والبطش والجبروت (أتبنُون بكل رَيع آية تعبثون. وتتَّخذون مَصانِعَ لعلكُم تخلُدون. وإذا بطشتم بطشتُم جبارين)[٥].

وصالح يحذر قومه من الطغاة المفسدين: (فاتقوا الله وأطيعون ولا تُطيعوا أمر المسرفين. الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون)[٦].

---

(١) الإسراء: ٩٣.
(٢) الإسراء: ٩٥.
(٣) الأحزاب: ٢١.
(٤) المؤمنون: ٣٢.
(٥) الشعراء: ١٢٨-١٣٠.
(٦) الشعراء: ١٥٠-١٥٢.

ولوط يقول لقومه: (أتأتون الفاحِشَةَ ما سبقكُم بها من أحد من العالمين)[1] (أتأتُون الذُكران من العالمين. وتذرون ما خلَق لكُم ربُّكُم من أزواجكم، بل أنتم قوم عادون)[2].

وشعيب يقول لقومه: (يا قوم اعبُدوا اللهَ مالكُم من إلهٍ غيرهُ، ولا تَنقصُوا المكيَال والميزان، إنِّي أراكم بخيرٍ وإنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقِسط، ولا تَبخسُوا الناسَ أشياءَهُم ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسدين. بقيةُ الله خيرُ لكم إن كُنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ)[3]. فهنا نجد شعيباً يبدأ قومه بدعوتهم إلى التوحيد الذي هو أساس البناء في الرسالات الإلهية كلها، ويستغرق هذا منه جملة واحدة، ثم يسهب ويفيض في دعوتهم إلى العدل في معاملاتهم الاقتصادية، والأعراض عما كانوا عليه من التطفيف والبخص والإفساد، وهنا يردون عليه في جهل ساخر، أو في سخرية جاهلة، إذا (قالوا، يا شعيبُ أصلَواتُكَ تأمُرُكَ أن نَترُكَ ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعَل في أموالِنا ما نشاءُ، إنك لأنت الحليمُ الرشِيدُ)[4].

وهكذا نجد دعوات الرسل، لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني، وما تتطلبه من علاج وإصلاح. ولكن ما موقف دعوة الإسلام من الجانب الإنساني؟!

الجانب الإنساني في رسالة الإسلام:

إن كل دارس للإسلام في كتابه وسنة رسوله، يتبين له بجلاء: أنه وجه عناية بالغة إلى «الجانب الإنساني» وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه، وتوجيهاته، وتشريعاته.

وإذا نظرت في الفقه الإسلامي وجدت «العبادات»، لا تأخذ إلا نحو

(١) الأعراف: ٨٠.
(٢) الشعراء: ١٦٥، ١٦٦.
(٣) هود: ٨٤-٨٦.
(٤) هود: ٨٧.

الربع أو الثلث من مجموعه، والباقي يتعلق بأحوال الإنسان من أحوال شخصية، ومعاملات، وجنايات، وعقوبات، وغيرها.

على أنك إذا تأملت العبادات الكبرى نفسها، وجدت إحداها «إنسانية» في جوهرها، وهي عبادة «الزكاة»، فهي تؤخذ من الإنسان الغني، لترد على الإنسان الفقير. هي للأول تزكية وتطهير، وللثاني إغناء وتحرير.

والعبادات الأخرى لا تخلو من جانب إنساني تلمحه في ثناياها.

فالصلاة عون للإنسان في معركة الحياة: (يأأيها الذيـــن آمنوا استَعِينُوا بالصبرِ والصَّلاة)[1].

والصوم تربية لإرادة الإنسان على الصبر في مواجهة المصاعب، وتربية لمشاعره على الاحساس بآلام غيره، فيسعى إلى مواساته. ولهذا سمى النبي - ﷺ -، شهر رمضان «شهر الصبر» و «شهر المواساة»[2].

والحج مؤتمر رباني إنساني، دعا الله فيه عباده المؤمنين: (ليشهَدُوا مَنافِعَ لهم ويذكُروا اسم اللهِ في أيامٍ معلومات)[3]، فشهود المنافع هنا يمثل الجانب الإنساني في أهداف الحج.

وفوق ذلك نجد النبي ﷺ يرفع إلى درجة العبادة كل عمل يؤديه المسلم، يترتب عليه نفع مادي لإنسان، أو سرور نفسي لإنسان.

ولا يكاد مسلم يجهل الأحاديث النبوية التي تقرر أن: إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن أمرك بمعروف صدقة، ونهيك عن منكر صدقة، وحملك الرجل الضعيف على دابته صدقة، وإصلاحك بين اثنين صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة.. الخ ما جاء به الحديث من ألوان البر الإنساني، والخدمة الاجتماعية.

بل إن النبي ﷺ ليرتفع بهذا اللون من البر والخدمة الإنسانية اليومية، إلى

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) كما في حديث سلمان عند ابن خزيمة.

(٣) الحج: ٢٨.

منزلة الواجب الذي يؤاخذ من تركه عمداً وهو قادر عليه.

روى الشيخان عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة» فقال أصحابه: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يتصدق به، وقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟!

أي: أنهم حسبوا الصدقة محصورة في إعطاء شيء من المال للمحتاج، فبين لهم سعة مفهوم الصدقة التي يأمر بها كل مسلم، حتى من لم يجد ما لا يتصدق به، فقال: يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟! قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف، أو الخير، قالوا: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها له صدقة.

وأكثر من ذلك، أن الرسول ﷺ يجعل هذه الفريضة الإنسانية الاجتماعية اليومية على كل سُلامى من جسم الإنسان، أي كل مفصل من مفاصله.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان «كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

وفي بعض الأحيان تجد الأحاديث النبوية تعطي قيمة لبعض الأعمال الإنسانية. ترفع بها درجتها على الاشتغال بالقربات الدينية. وذلك في الأعمال التي تتسع دائرة النفع بها للخلق، أو يدرأ بسببها شر كثير عن الناس، مثل إصلاح ذات البين، وعدل الوالي في ولايته. ونحو ذلك..

نقرأ في الحديث الشريف: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين» فإن فساد البين هي الحالقة»[1] يعني حالقة الدين، لا حالقة الشعر كما جاء في إحدى الروايات[2].

(١) رواه أبو داوود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه الترمذي.

ونقرأ كذلك «ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»[1].

ونقرأ كذلك هذا الحديث العجيب:

«أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد ـ يعني مسجد المدينة ـ شهراً، ومن كظم غيظه ـ ولو شاء أن يمضيه أمضاه ـ ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له، ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام»[2].

إنسانية الإنسان:

ولقد عرف العالم فيما عرف من مذاهب وفلسفات وأفكار، يضرب بعضها بعضاً اتجاهين فكريين يناقض أحدهما الآخر:

اتجاه يؤله الإنسان يجعله إله نفسه، لا رب خلقه، ولا إله يدبر أمره ولا حساب ينتظره، ولا آخرة يصير إليها، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

واتجاه آخر، ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد «حيوان»، حيوان متطور، أو حيوان «منتج»، أو حيوان «اجتماعي».

المهم أنه حيوان، وأساسه هو هذه «الحيوانية»، ومن زاويتها ينظر إليه ويتعامل معه، ويفسر سلوكه، وتحدد علاقاته.

أما الإسلام، فلا يرفع الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يهبط به إلى درك الحيوانية.

فليس إلهاً من وجد بعد أن لم يكن، ومن يموت بعد عمر يقصر أو يطول، من ولد بغير اختياره، ويموت بغير اختياره، ويعيش بين الولادة والموت تحكمه سنن كونية لا يملك لها دفعاً، فهو ـ رغم ما منح من عقل وإرادة ووسائل ـ عاجز مقهور أمام كثير من الأشياء والأحداث والمواقف،

(١) رواه الطبراني في الكبير، والأوسط عن ابن عباس، واسناد الكبير حسن، كما في الترغيب.

(٢) رواه الأصبهاني من حديث ابن عمر واللفظ له، ورواه ابن أبي الدنيا عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولم يسمه، وأشار المنذري إلى ضعفه في «الترغيب والترهيب» وذكر الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته»: أنه حسن.

والعاجز المقهور كيف يكون إلهاً، وصفة الإله أنه القادر القهار؟

ومع أنه ليس إلهاً، فليس حيواناً. إن نفي الإلهية عن الإنسان لا يعني إثبات الحيوانية له، فالإنسان جنس متميز، كرمه الله بالعقل، وبالإرادة، وبالروح.

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان:

الإنسان - إذن - في نظر الإسلام مخلوق متميز، مخلوق مكرم، ميزه الله وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ويحسن هنا أن نذكر بعض مظاهر التكريم الإلهي للإنسان.

(أ) استخلافه في الأرض:

لقد أعلن الإسلام كرامة الإنسان، فاعتبره خليفة الله في الأرض، وهي منزلة اشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتشوفت إليها أنفسهم، فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان: (وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعِلٌ في الأرض خليفةً، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسْفِكُ الدماءَ، ونحن نُسبّحُ بحمدِكَ ونُقدّسُ لك، قال إني أعلمُ ما لا تعلمون. وعلَّم آدمَ الأسماءَ كُلها ثم عرضَهُم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كُنتم صادقين. قالوا سُبحانكَ، لا عِلمَ لنا إلا ما عَلمتَنَا، إنكَ أنتَ العليم الحكيم. قال يا آدمُ أنبئهُم بأسمائِهِم، فلما أنبأهُم بأسمائِهِم قال ألم أقُل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تُبْدُون وما كنتم تكتمون)[1]

لقد كرم الله الإنسان بالخلافة في الأرض، وهيأه لها بالعقل والعلم الذي تفوّق به على الملائكة.

(ب) خلقه في أحسن تقويم:

وأعلن الإسلام كذلك أن الله كرم الإنسان بالصورة الحسنة وبالخلقة

(١) البقرة: ٣٠-٣٣.

الحسنة، كما قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)[1] (وصَوَّرَكُم فأحسنَ صُورَكَم)[2].

وقد كان النبي - ﷺ - يكرر هذا الدعاء في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين».

(جـ) تمييزه بالعنصر الروحي:

وفوق ذلك كله كرمه بالروح العلوي الذي أودعه الله بين جنبيه، فهو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، استحق به أن تنحني له الملائكة إجلالاً وإكباراً لمقْدَمِهِ بأمر الله، كما قال تعالى لملائكته: (إني خالق بشراً من طين. فإذا سَوَّيْتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعُوا لهُ ساجدين)[3].

وهذه النفخة الروحية الإلهية ليست خاصة بآدم أبي البشر، كما قد يتوهم بعض الناس، فإن بنيه ونسله جميعاً قد نالهم حظ منها، كما قال تعالى بعد أن ذكر خلق آدم: (ثم جعل نسلَهُ من سُلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون)[4].

فلم يكن هذا التكريم والاحتفال لشخص آدم عليه السلام، وإنما كان تكريماً للنوع الإنساني في شخصه. فإن الله ميزهم بما ميزه من مواهب العقل والعلم والروح، واستخلفهم كما استخلفه في الأرض، ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر كافة حين قال: (ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهُم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[5].

وهذا كله يثبت أن الإنسان نوع متفرد متميز عن سائر الحيوانات، فإنها - وإن شابهته في عناصر تكوينها الطيني - تخالفه ويخالفها في التكوين المعنوي، إذا لم يكرمها الله بما كرمه به من الروح والعقل، لأنها لم تُكَلَّف ما

---

(١) التين: ٤.
(٢) التغابن: ٣.
(٣) سورة ص: ٧١، ٧٢.
(٤) السجدة: ٨، ٩.
(٥) الإسراء: ٧٠.

كلفه من عمارة الأرض وخلافة الله فيها.

فهي مجرد أداة له في مهمته، ليسخرها في حاجته.

ولا ريب أن إيحاء هذا المعنى في نفس الإنسان، غير إيحاء الذين ينظرون إليه على أنه ليس إلا حيواناً «تطور»، وترقى حتى صار إلى ما هو عليه الآن[١].

(د) تسخير الكون لخدمة الإنسان:

وكان من تكريم الله للإنسان ـ في نظر الإسلام ـ أنه جعل الكون كله في خدمته. وسخر لمنفعته العوالم كلها السماء والأرض، الشمس، والقمر، والنجوم، الليل والنهار، الماء واليابس، البحار والأنهار، النبات والحيوان والجماد، كلها مسخرة لمصلحة الإنسان وسعادة الإنسان، كرامة من الله له، ونعمة منه عليه.

يقول تعالى مخاطباً بني الإنسان: (اللهُ الذي خلق السمواتِ والأرض، وأنزل من السماءِ ماءً فأخرَج به من الثّمرات رِزقاً لكُم، وسخَّر لكُم الفُلكَ لتجري في البحر بأمره، وسخر لكُم الأنهارَ، وسخر لكُم الشمسَ والقمرَ دائبين، وسخرَ لكُم الليلَ والنهَار. وآتاكم من كلِّ ما سألتُموه، وإن تعدُّوا نِعمة الله لا تُحصوها)[٢].

(الله الذي سخر لكُم البحر لتجري الفُلك فيه بأمره، ولِتَبْتَغوا من فضلِه

---

(١) كما هو مذهب داروين الذي لم يقم عليه دليل صحيح، وإنما روجته الصهيونية لحاجة في نفسها، كما اعترفوا به في (بروتوكولات حكماء صهيون)، وحتى أتباع داروين من بعده لم يستطيعوا إلا أن يخالفوه ويثبتوا بالعلم «تفرد الإنسان»، وهؤلاء هم الذين يطلق على مذهبهم اسم «الداروينية الحديثة». انظر: في تقويم نظرية داروين كتاب الأستاذ قيس القرطاس «نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها»، وكتاب «الإنسان في القرآن الكريم» للأستاذ عباس العقاد، و «الإنسان بين المادية والإسلام» للأستاذ محمد قطب.

(٢) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

ولعلكُم تشكرون. وسخَّر لكُم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[1].

(ألم تَروْا أنَّ الله سخَّر لكُم ما في السماوات وما في الأرض وأسبَغ عليكُم نِعمَهُ ظاهِرة وباطنة)[2].

وتسخير الكون للإنسان يتضمن معنيين كبيرين:

أولهما: أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للإنسان، لا يستعصي شيء منها عليه إذا تيسرت سبله، ورعيت سنن الله فيه. فعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره، في فتح مغاليقها، واكتشاف مخبوئها، ليستخدمها فيما يعود عليه بالخير والسعادة.

وثانيهما: أن الإنسان هو واسطة العقد في هذا العالم، وإن صغر حجمه، بالنسبة للمكان، أو قصر عمره، بالنسبة للزمان. فلا يجوز للإنسان إذن أن يؤله شيئاً في هذا العالم، أو يتعبد له رغباً أو رهباً، والذين عبدوا بعض الأشياء، أو المظاهر أو القوى الكونية، في العالم العلوي أو السفلي، قلبوا الحقائق، وحولوا الإنسان من سيد سخر له الكون، إلى عبد ذليل، يسجد لنجم، أو شجرة، أو بقرة، أو حجر من الأحجار، أو غير ذلك مما سجله التاريخ من أوهام البشر وضلالاتهم إذا انحرفوا عن هداية الله، على عكس ما أراد الله للإنسان، وما أراده من الإنسان.

تميز «الإنسانية» في الإسلام:

ولا ريب أن هناك أدياناً، ونحلاً، ومذاهب، وفلسفات تهتم بالإنسان وتحرص على سعادته، وقد تعلن وتفاخر بأنها «إنسانية».

ولكن العيب المشترك في هذه الديانات، والمذاهب أنها لم تعرف الإنسان معرفة محيطة به، وإنما نظرت إليه من زاوية معينة، أو من جانب خاص،

---

(١) الجاثية: ١٢، ١٣.

(٢) لقمان: ٢٠.

غافلة عن الجوانب الأخرى، برغم أهميتها في وجوده، فجارت على الإنسان باسم الإنسان.

إن بعض الأديان والفلسفات نظرت إلى الجانب الروحي في الإنسان، غير عابئة بجانبه العقلي، وجانبه الحسي والمادي. بل ربما دعت إلى تعذيب الجسم في سبيل سعادة الروح.

وبعض المذاهب والفلسفات لم تنظر إلا إلى الجانب المادي في الإنسان، ولم تبال بغيره، ولم تعترف به، فالإنسان كائن اقتصادي، أو حيوان منتج، لا أكثر.

وبعض المذاهب والفلسفات «ألّهت» الإنسان، واعتبرته كائناً مستقلاً، «يقوم وحده» مستغنياً عن الله، فأساءت إلى الإنسان من حيث أرادت الإحسان إليه، وجعلته «نباتاً شيطانياً»، خرج إلى الوجود من غير زارع، ولغير هدف، إلا أن ييبس ويصبح هشيماً تذروه الرياح، أو تأكله النار.

وبعض المذاهب ـ كالرأسمالية ـ تدلل الإنسان الفرد، وتطلق له العنان، حتى يتحطم في النهاية ـ باسم الحرية ـ دون أن تجعل للمجتمع حقاً في مراقبته ومحاسبته، وتقويمه من أجل مصلحته هو في النهاية، ومصلحة المجتمع من ورائه.

وبعض آخر ـ كالشيوعية ـ، يضغط على الإنسان الفرد، ويكبله بقيود شتى، ويحرمه من كثير من الحريات، وكثير من الحقوق الطبيعية ـ باسم المجتمع ـ حتى يكاد يسحقه سحقاً.

أما الإسلام، فقد تميز عن هذه الأديان والفلسفات بنظرته الشاملة المحيطة لماهية الإنسان، والنفاذ إلى أغوار طبيعته، والاعتراف بكل جوانبه وخصائصه، دون ميل أو شطط، أو إهمال لناحية لحساب أخرى.

بين إنسان المسيحية وإنسان الإسلام:

إن الأديان السماوية كلها قد جاءت لتحرير الإنسان، وإسعاده، والسمو

به، ولكن أصابها الغلو أو التحريف والتزييف، بما بدل جوهرها، وأخرجها عن رسالتها، ونظراً لأنها كانت رسالات مرحلية موقوتة لم يكتب الله لها الخلود، ولم يتكفل بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن، بل استحفظها أهلها، فضيعوا وبدلوا.

وأبرز مثل لذلك المسيحية التي جاءت لإنقاذ الإنسان من سيطرة العقلية اليهودية في ماديتها، وشكليتها وعنصريتها. فلم تلبث أن حُرِّفت بالحذف والزيادة حتى أصبحت ـ في القرون الوسطى ـ غلاً في عنق الإنسان، وقيداً في رجله.

اعتبرت الإيمان ضداً للعقل. فكان شعارها: اعتقد وأنت أعمى.

واعتبرت الجسم عدواً للروح، فأهملت الأجسام إبقاء على الأرواح.

واعتبرت العمل للحياة منافياً للتعبد لله، فابتدعت نظام الرهبنة، والانقطاع عن الحياة.

واعتبرت الإنسان ملوثاً بالخطيئة من يوم يولد، لأنها لازمة لوجوده، ورثها من أبيه الأول.

وحجرت على الإنسان أن يتصل بربه إلا بوساطة كاهن بيده مفاتيح الجنة، وملكوت السماء.

(هـ) إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان:

ذلكم هو إنسان المسيحية في صورتها التاريخية المعروفة، أما إنسان الإسلام، فهو شيء آخر.

لقد كان من دلائل تكريم الله للإنسان في نظر الإسلام، أنه فتح له باب التقرب إليه سبحانه وتعالى أنى شاء، ومتى شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون في ضميره، ويقفون حجاباً بينه وبين ربه. يقول الله تعالى مخاطباً لرسوله الكريم: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا

دعان)[1] ويقول في آية أخرى: (وقال ربُّكم ادعوني أستَجِب لكُم)[2]. (فاذكُروني أذكرْكُم وأشكروا لي ولا تكفرون)[3].

ويعلن الحديث القدسي أن من تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى الله ذراعاً تقرب الله إليه باعاً[4].

لا حاجة بالإنسان إذن إلى وساطة كاهن، يصل عن طريقه إلى الله، ولا يقبل الله منه عبادة بغير توسطه، ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه إلا بالجلوس أمامه في ذل، وخنوع على كرسي الاعتراف المشهور. فليس في الإسلام كاهن ولا كهنوت.

وبهذا يستطيع الإنسان المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء، وأين شاء، بعيداً عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين للسمسرة بين الله وعباده.

يستطيع أن يدعو ربه متى شاء، فيجده أقرب إليه من حبل الوريد، دون وسيط أو شفيع وقد قال تعالى: (وإذا سَأَلَكَ عبادي عني فإنِّي قريب)[5].

ويستطيع أن يصلي ويتعبد في أي مكان، وحده أو مع غيره، دون حجر أو تضييق، فالأرض كلها له مسجد، والله بين يديه حيث كان: (فأينَمَا تُوَلَّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله)[6].

ويستطيع أن يناجى الله مباشرة في أي ساعة من ليل أو نهار، فليس على بابه حاجب ولا بواب[7].

وليس هذا لخاصة الأتقياء والصالحين، دون العصاة والمذنبين.

كلا، فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه، ووقف

(١) البقرة: ١٨٦.
(٢) غافر: ٦٠.
(٣) البقرة: ١٥٢.
(٤) من حديث رواه البخاري.
(٥) البقرة: ١٨٦.
(٦) البقرة: ١١٥.
(٧) انظر: كتابنا «العبادة في الإسلام» موضوع «تحرير العبادة من رق الكهنوت» ص ١٤٨ - ١٥٦ ط خامسة.

على عتبته ضارعاً مستغفراً، وإن اقترف قبل ذلك كبائر الإثم وفواحش الذنوب. يقول تعالى:

(والذين إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لِذنُوبهم، ومن يَغفِرُ الذنوبَ إلا الله؟ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهُم يعلمون)[١].

وفي الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»[٢].

وفي القرآن الكريم: (قُل يا عبادي الذين أسرفُوا على أنفُسِهم لا تقنطُوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفِرُ الذنوبَ جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم)[٣]، وما أجل وأرق هذاالنداء (يا عبادي)، فرغم خطاياهم وإسرافهم على أنفسهم، لم يطردهم من ساحته، ولم يحرمهم شرف عبوديته، وأضافهم إلى ذاته القدسية، إيناسا لهم، وتحبباً إليهم.

(و) الاعتراف بالكيان الإنساني كله:

وكان من تكريم الإسلام للإنسان أن اعترف به كله كما فطره الله: جسمه وروحه، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، فلم يغفل حق جانب من هذه الجوانب لحساب آخر.

١ ـ ولهذا أمره بالسعي في الأرض، والمشي في مناكبها، والأكل من طيباتها، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده فيها، وحثه على النظافة، والتجميل والاعتدال، ونهاه عن المسكرات، والمفترات وكل ما يضر تناوله، وفاء بحظ جسمه.

٢ ـ وأمره بعبادة الله وحده، والتقرب إليه بأنواع الطاعات، من صلاة، وصيام، وصدقة، وزكاة، وحج وعمرة، وذكر ودعاء، وإنابة وتوكل،

---

(١) آل عمران: ١٣٥.
(٢) رواه مسلم من حديث أبي ذر المشهور.
(٣) الزمر: ٥٣.

وخوف ورجاء، وبر وإحسان، وجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من ألوان العبادة الظاهرة والباطنة ـ وفاء بحق الروح.

٣ ـ وأمره بالنظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وفي مصاير الأمم، وسنن الله في المجتمعات، كما أمره بطلب العلم، والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت منه، وأنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء، كل ذلك وفاء بحق العقل.

٤ ـ ولفته إلى جمال الكون بأرضه وسمائه ونباته وحيوانه، وما زانه الله به من مظاهر الحسن والبهجة، ليشبع حاسة الجمال في نفسه، ويشعر في أعماقه بعظمة ربه، الذي أحسن كل شيء خلقه. كما أنه أباح له التمتع بألوان من اللهو وترويح النفس، دفعا للسآمة عنها، فإنها تمل كما تمل الأبدان، وتتعب كما تتعب، وفي هذا رعاية لجانب الوجدان والعاطفة.[١]

(ز) تحرير الإنسان من اعتقاد وراثة الخطيئة الأولى:

ومن كرامة الإنسان في الإسلام: أنه أزال عنه وصمة التلوث بالخطيئة، التي يولد عليها كل إنسان، كما هي دعوى المسيحية، التي زعمت أن خطيئة آدم ـ بالأكل من الشجرة المحرمة ـ ورثت لبنية ذكوراً وإناثاً، فلا يولد مولود إلا وفي عنقه هذه الخطيئة، ولا ينجو إنسان من إثمها وتبعتها إلا بكفارة وفداء، ولم يتحقق هذا الفداء إلا بصلب المسيح ـ فيما زعموا ـ ومن ثم كانت حتمية الإيمان بالمسيح فادياً مخلصاً!.

أما الإسلام فقد ألغى هذا كله، وأعلن أن «كل مولود يولد على الفطرة»[٢] غير ملوث بخطيئة، أو مثقل بذنب.

كما قرر الإسلام بوضوح وحسم مسؤولية الإنسان عن نفسه، فلا يجوز في منطق العدل الإلهي أن يحمل الابن وزر أبيه، أو الحفيد وزر جده: (ولا

(١) انظر: كتابنا «الحلال والحرام في الإسلام» فصل: «اللهو والترفيه».
(٢) من حديث رواه البخاري.

تَكسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليّها، ولا تَزِر وازِرَة وِزر أُخرى)[1].

على أن معصية آدم نفسها، قد غسلتها التوبة، وانتهى أمره بالاجتباء والهداية من ربه، كما قال تعالى: (وعصى آدم ربَّه فغوى. ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهدى)[2].

يقول الدكتور نظمي لوقا، المسيحي المصري في كتابه «محمد: الرسالة والرسول»: إن أنس لا أنسى ما ركبني صغيراً من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى وما سيقت فيه من سياق مروع، يقترن بوصف جهنم، ذلك الوصف المخيف لمخيلة الأطفال، وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران، جزاء وفاقاً على خطيئة آدم بإيعاز من حواء. وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذي فدى البشر بدمه الطهور!، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين!.

«وإن أنس لا أنسى القلق الذي ساورني وشغل خاطري عن ملايين البشر قبل المسيح: أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!

«والحق انه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

«إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقاً، ورد اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه»[3].

---

(١) الأنعام: ١٦٤.
(٢) طه: ١٢١، ١٢٢.
(٣) «محمد: الرسالة والرسول».

تقرير حقوق الإنسان:

وقبل أن تسمع أذن الدنيا عن حقوق الإنسان باثنتي عشر قرناً أو تزيد، ويوم كان العالم كله لا ينظر للإنسان إلا من جهة ما عليه من واجبات يطالب بأدائها، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق. جاء الإسلام ليقرر جهرة أن للإنسان حقوقاً ينبغي أن تُرعى، كما أن عليه واجبات ينبغي أن تؤدى.

وكما أنه يُسئل عما عليه، يجب أن يُعطى ماله، فكل واجب يقابله حق. كما أن كل حق يقابله واجب.

وهذه الحقوق ليست منحة من مخلوق مثله له، يمن بها عليه إن شاء ويسلبها منه متى شاء.

كلا، ليست منحة من إمبراطور أو ملك أو أمير، أو حزب أو لجنة. إنما هي حقوق قررها الله له بمقتضى فطرته الإنسانية. فهي حقوق ثابتة دائمة بحكم الطبيعة والشريعة جميعاً.

من هذه الحقوق: حق الحياة، حق الكرامة، حق التفكير، حق التدين والاعتقاد، حق التعبير، حق التعلم، حق التملك، حق الكفاية من العيش، حق الأمن من الخوف.

وسأقتصر هنا على الحديث الخاطف عن بعض هذه الحقوق، طلباً للاختصار، وللتفصيل مجال آخر.(١)

حق الحياة للإنسان:

قدس الإسلام حق الحياة وحماه بالتربية والتوجيه، وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية. واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره. لا يجوز لحاكم أن يسلب حياة المحكوم. ولا لسيد

(١) وقد ألفت في ذلك كتب يمكن الرجوع إليها من أراد التفصيل، أذكر منها: حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبدالواحد وافي، وحقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالي.

أن يسلب حياة عبده، ولا لزوج أن يسلب حياة زوجه، ولا لوالد أن يسلب حياة ولده.

ولا غرو أن أنكر القرآن على أهل الجاهلية من العرب الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم. وأدوا البنات خاصة مخافة العار، وقتلوا البنين والبنات جميعاً من أجل الإملاق الواقع، أو خشية الإملاق المتوقع، وجعل القرآن ذلك من أكبر الآثام: (وإذا المؤودة سُئِلت. بأي ذنب قُتلت)[1]. (ولا تقتلوا أولادَكُم خَشْيَةَ إملاق، نحن نرزقُهُم وإياكُم، إن قَتْلَهُم كان خِطئاً كبيراً)[2].

لم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ومشروف، ولا بين حر وعبد، ولا بين رجل وامراة، ولا بين كبير وصغير، حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها، حتى الجنين الذي ينشأ عن طريق الحرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه، لأنه نفس محترمة، لا يحل الاعتداء عليها. ولما جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، وأقرت عنده أنها زنت وأنها حبلى من الزنى، وطلبت إليه أن يطهرها بإقامة حد الله عليها، قال لها: اذهبي حتى تلدي، فلما ولدت جاءت بطفلها، مطالبة باقامة الحد مرة أخرى، فقال لها: اذهبي حتى تفطميه. ولم ينفذ فيها العقوبة إلا بعد أن جاءت به بعد أن أصبح يأكل الطعام. كل هذا رعاية لحق الجنين، ثم المولود الرضيع، لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه، أو اقترفه أبوه، (ولا تَزِرُ وازرة وزر أخرى).

ومن أجل المحافظة على الحياة، جاءت آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ، تنذر بأشد العذاب من اعتدى على نفس بغير حق. حتى ذهب بعض العلماء في الإسلام إلى أن القاتل لا تقبل له توبة.

وفي سبيل المحافظة على الحياة شرع الإسلام في قتل العمد القصاص،

---

(١) التكوير: ٨، ٩.

(٢) الإسراء: ٣١.

مع ترغيبه في العفو والصلح بعوض أو بغير عوض (ياأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُم القِصاصُ في القتلى)[1] إلى أن يقول: (فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)[1] (ولكُم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكُم تتقون)[2].

كما شرع الدية والكفارة في قتل الخطأ قال تعالى: (وما كان لمؤمِن أن يقتُلَ مُؤمِناً إلا خطئاً، ومن قَتَلَ مُؤمِناً خطئاً فتحريرُ رقبةٍ مُؤمِنة وَدِيةٌ مُسلَّمة إلى أهلِهِ إلا أن يَصَّدقُوا، فإن كان من قوم عدوٌّ لكُم، وهو مؤمن، فتحريرُ رقبةٍ مُؤمِنةٍ، وإن كان من قوم بينكُم وبينهُم مِيثاق، فَدِيَة مُسلَّمة إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبة مُؤمنة، فمن لم يجد فَصيامُ شَهرين متتابعين تَوبةً من الله، وكان الله عليماً حكيماً)[3].

ونلاحظ في الآية الكريمة أن الكافر الذي بينه وبين المسلمين ميثاق وحلف، يجب في قتله خطأ ما يجب في قتل المؤمن من الدية والكفارة. وقد جاءت الأحاديث مؤكدة بأن من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة.

وكيف لا يحمي الإسلام حق الحياة للإنسان، وقد حمى حياة الحيوان إذا لم يكن منه أذى للناس، وفي الحديث الصحيح: «أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي حديث آخر: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» مشيراً إلى قوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحية إلا أمم أمثالكم)[4].

فإذا كان هذا في شأن القطط والكتب، واحترام حياتها، واعتبارها أمما أمثالنا، فكيف تكون منزلة حياة الإنسان المكرم، خليفة الله في الأرض؟

---

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) البقرة: ١٧٩.
(٣) النساء: ٩٢.
(٤) الأنعام: ٣٨.

حق الكرامة وحماية العرض:

أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان، مع حرمة الدماء والأموال، حتى ان النبي ﷺ،أعلن ذلك في حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام: «إن الله حرم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم»[١] فلا يجوز أن يؤذى إنسان في حضرته ولا أن يُهان في غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول. فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط أو السنان.

وكيف لا يحرم الإسلام القتل، وقد حرم ما دونه؟ أجل، لقد حرم الإسلام أشد التحريم أن يضرب إنسان بغير حق، وأن يجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة من ضرب إنساناً ظلماً، ومن شهده يضرب ولم يدفع عنه[٢]، وبهذا حمى بدن الإنسان من الإيذاء.

كذلك حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان: حرم الهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب، والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، وأنزل الله في ذلك آيات تتلى في سورة الحجرات[٣]، وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة.

ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان في حالة حياته، فكفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه، والنهي عن كسر عظمه، أو الاعتداء على جثته[٤]، خلافاً للأمم التي تحرق جثث موتاها.

وفي هذا جاء الحديث النبوي: «كسر عظم الميت ككسره حياً»[٥].

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر.

(٢) معنى حديث رواه الطبراني، والبيهقي باسناد حسن كما في الترغيب والترهيب للمنذري.

(٣) الآيات ١٠-١٢ (يا أيُّها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نِساءٌ مِن نساء عسى أن يكُنَّ خيراً منهن ولا تَلمِزُوا أنفسكم ولا تَنابُزوا بالألقاب) ... الآيات.

(٤) ما لم تدفع إلى ذلك ضرورة أو حاجة، كمعرفة اسباب القتل وكيفيته، الذي يقوم به (الطب الشرعي) الآن، وقد يستلزم هذا تشريح الجثة أو كسر بعض العظام.

(٥) رواه أحمد، وأبو داوود، وابن ماجه عن عائشة، ورواه ابن ماجه عن أم سلمة بلفظ: (ككسر عظم الحي في الإثم) كما في الجامع الصغير للسيوطي.

وقال ابن حجر في الفتح:

يستفاد منه أن حرمة المؤمن بعد موته باقية كما كانت في حياته[1].

وكما حمى جسمه بعد الموت حمى عرضه وسمعته أيضاً، لئلا تلوكها الأفواه. فقال الرسول ﷺ: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير»[2].

حق الكفاية التامة:

ومن حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

والواجب أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه، عن طريق العمل المشروع، في زراعة أو تجارة أو صناعة، أو احتراف بحرفة نافعة للناس. سواء عمل الإنسان لنفسه أم لغيره بأجر يكافىء جهده.

فإذا لم يكن للإنسان دخل يكفيه، كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه. لأنه جزء منهم، وهم جزء منه، وقد قال تعالى: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)[3].

وإن لم يكن له أقارب موسرون، يستطيعون حمله، وجبت كفايته من الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فهي من الأمة وإليها.

ومن الجميل هنا: أن الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للإنسان الفقير، بل لتحقيق تمام الكفاية له ولمن يعول من أهل وأقربين. فالحد الأدنى المطلوب للفقير في المجتمع الإسلامي، ليس هو حد الكفاف، ولا حد الكفاية، بل تمام الكفاية.

---

(١) فيض القدير، شرح الجامع الصغير للمناوي ٤ / ٥٥٠-٥٥١.

(٢) رواه أبو داوود الطيالسي في مسنده بسند جيد كما في كشف الخفاء للعجلوني ١ / ١٠٦.

(٣) الأنفال: ٧٥.

ولقد ذكر الفقهاء: أن كتب العلم من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية.

بل اعتبروا الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية.

والمطلوب: تمام الكفاية له ولأسرته لمدة سنة كاملة(١).

بل ذهب الإمام الشافعي - وهو قول في بعض المذاهب الأخرى - إلى وجوب كفاية العمر للفقير، بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرة أخرى. وقد صح عن عمر قوله: «إذا أعطيتم فأغنوا» وقوله: «والله لأكررن عليهم الصدقة ولو راح على أحدهم مئة من الإبل»(٢). وهذا المقدار - مئة من الإبل - يساوي عشرين نصاباً من أنصبة الزكاة في الإبل.

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال، بل هي الحق الدوري الثابت الذي وصل به الإسلام إلى أعلى درجات الإلزام، فاعتبر إيتاءها من أركان الإسلام الخمسة، وقرنها بالصلاة - عمود الدين - في عشرات المواضع من القرآن والحديث، وفرض أداءها طوعاً وبطيب نفس، وإلا أخذت كرهاً، ولو بقوة السلاح، حتى لا يضيع حق الفقير في تمام كفايته وكفاية أهله. ولا يجهل أحد حروب الخليفة الأول أبي بكر الصديق من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء.

ومع هذا إذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمام الكفاية للفقراء والمساكين، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم، وإن لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، ألزمهم السلطان بذلك باسم الشرع الذي أوجب التكافل بين المسلمين، واعتبرهم كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، وليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع.

على أن دائرة هذا التكافل ليست مغلقة على المسلمين وحدهم، بل تشمل معهم من يعيش في ظل دولة الإسلام من أهل الذمة.

(١) انظر: في هذا، كتابنا «فقه الزكاة» جـ ٢ ص ٥٦٧ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦٤ - ٥٦٧.

وقد رأينا عمر الفاروق يأمر خازن بيت المال أن يفرض ليهودي ـ رآه يسأل الناس ـ من بيت مال المسلمين ما يكفيه، وجعل ذلك قاعدة له ولأمثاله من أهل الكتاب، وكتب بذلك عمر بن عبدالعزيز إلى بعض ولاته لنيفذه[1].

كما أن عمر ـ وهو في طريقه إلى الشام ـ وجد جماعة مجذومين من النصارى، فأمر باجراء القوت عليهم من الصدقات.

ثم إن موارد الدولة كلها يجب أن تكون في خدمة هذا الحق ـ حق الكفاية التامة ـ إذا لم تكف الزكوات وغيرها. وذلك بحكم مسئولية الدولة عن رعاياها.

من ثمرات الإنسانية في الإسلام:

الإخاء والمساواة والحرية.

هذه النزعة الإنسانية الأصيلة في الإسلام هي أساس هام لمبدأ الإخاء البشري الذي نادى به الإسلام. وهي أساس هام كذلك لمبدأ المساواة الإنسانية العام الذي دعا إليه الإسلام.

وهي أساس هام كذلك لمبدأ الحرية الذي قرره الإسلام. أكد الإسلام الدعوة إلى هذه المبادىء الإنسانية الثلاثة، ووضع الصور العملية لتطبيقها، وربطها بعقائده وشعائره وآدابه ربطاً محكماً، بحيث لا تظل مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس، أو فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس، أو حبر على ورق سطرته بعض الأقلام.

واكتفي هنا بالحديث عن الإخاء والمساواة فهما مبدأن متلازمان.

مبدأ الإخاء الإنساني:

أما مبدأ الإخاء البشري العام، فقد قرره الإسلام بناء على أن البشر جميعاً أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، ضمتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة،

(١) انظر: كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» ط ثانية.

والرحم الواصلة، ولهذا قال تعالى في أول سورة النساء: (يا أيها الناس اتقوا ربَّكُم الذي خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زَوجَها وبث مِنهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءَلُون به والأرحام، إن الله كان عليكُم رقيباً)[1].

وما أحق كلمة «الأرحام» المذكورة في هذه الآية أن تفسر بحيث تشمل بعمومها الرحم الإنسانية العامة، لتتسق مع بداية الخطاب بـ : (يا أيُّها الناسُ) ومع ذكر النفس الواحدة التي خلق الله منها جميع الناس رجالاً ونساء، وهي نفس آدم عليه السلام وعطفها على لفظ الجلالة «الله» في هذا المقام يدل على أن لهذه الأرحام شأناً أي شأن.

وقد كان رسول الله - ﷺ - يقرر هذا الإخاء ويؤكده كل يوم أبلغ تأكيد وأوثقه.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن رسول الله - ﷺ - كان يقول دبر كل صلاة:

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة»[2].

بهذا الدعاء كان يناجي رسول الله - ﷺ - ربه بعد كل صلاة، وإنه ليدلنا أوضح دلالة على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام.

١ - فهو - أولا - يعلن الأخوة بين عباد الله كلهم لا بين العرب وحدهم، ولا بين المسلمين وحدهم، مشيراً إلى الجامع المشترك بينهم، الموحد بين

---

(١) النساء: ١

(٢) ذكره ابن القيم في زاد المعاد، وقال: ورواه أبو داود.

أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم وهو العبودية لله تعالى.

٢ - وهو - ﷺ - يقرر ذلك في صيغة دعاء يناجي به ربه، ويشهد بنفسه أمامه سبحانه على حقية هذا المبدأ وصدقه، أي: أن تقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلام للاستهلاك المحلي أو للتضليل العالمي، وإنما هو حقيقة دينية لا ريب فيها.

٣ - أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام، واللذين لا يدخل أحد هذا الدين إلا إذا آمن وشهد بهما، وهما: توحيد الله تعالى ورسالة عبده محمد، وهذا الاقتران دليل على أهمية هذا المبدأ (الإخاء) لدى رسول الإسلام.

كما أن لهذا الاقتران دلالة أخرى في تأكيد مبدأ الإخاء، فإن توحيد الله تعالى معناه إسقاطه كافة المتألهين في الأرض، المتعالين على غيرهم من عباد الله. وهذا أول ما يعمق أساس الأخوة بين الخلق. كما أن الشهادة بأن محمداً عبد الله ورسوله - ليس إلهاً، ولا نصف إله، ولا ثلث إله ولا ابن إله، ولا من سلالة الآلهة - يؤكد مضمون الاخوة العامة ويثبتها.

٤ - ثم هو لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر أو مرة كل عام، أو حتى كل شهر أو كل أسبوع، بل يدل هذا الحديث أنه كان يكرر ذلك في كل يوم، وعقب كل صلاة، أي: خمس مرات في اليوم والليلة، وهذا دليل على مزيد العناية والاهتمام.

٥ - أنه جعل ذلك من الأذكار، والأدعية التي يتعبد بها، ويتقرب إلى الله بتكرارها، وربطه بالصلاة وختامها، وهذا يضفي عليه قدسية ومنزلة في قلوب المؤمنين لا تعدلها منزلة مبدأ يقرر بعيداً عن الله وعن هداه.

ويزداد هذا الإخاء توثقاً وتأكداً إذا أضيف إليه عنصر الإيمان، فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية، وتزيدها قوة على قوة، وإذا كان باب

الإيمان مفتوحاً لكل الناس بلا قيد، ولا شرط، ولا تحفظ على جنس، أو لون، أو اقليم أو طبقة، فإن الإخاء الديني المتفرع عن الإيمان والعقيدة المشتركة لا يضعف الإخاء العام، بل يشد عضده ويقويه، ويجعل له في واقع الناس كتلة حية ملموسة تؤمن به وتطبقه، وتدعو إليه، وتدافع عنه، فلا تُنافي إذن بين الإخاء البشري العام وبين الإخاء الديني، الذي نلمسه في مثل قوله تعالى: (إنما المؤمنون أخوة)(١). وقوله ﷺ «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه»(٢).

ولقد طبق الإسلام هذا الإخاء الرفيع، وأقام على أساسه مجتمعاً ربانياً إنسانياً فريداً. شعاره: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وُجِدَ هذا المجتمع في المدينة بعد الهجرة، في ظل العقيدة، فانطفأت نار العداوة بين الأوس والخزرج، وذابت الحواجز بين القحطانيين والعدنانيين من العرب، كما رأينا في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وانحلت العقد بين العربي والعجمي، وامحت الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وبين المتحضرين والبداة، وأصبح مسجد الرسول يضم في رحابه الفيحاء، الحبشي كبلال، والفارسي كسلمان، والرومي كصهيب، إلى جوار إخوانهم العرب الأقحاح من الصحابة، كما يضم أغنياء كابن عوف وابن عفان، وفقراء كأبي ذر وأبي هريرة. ولم ينل من أخوتهم اختلاف الجنس أو اللون أو القبيلة أو الطبقة، أو أي اعتبار بشري مما يفرق الناس بعضهم من بعض.

لقد غسل الإسلام الأنفس من أرجاس الجاهلية، وطهرها من الغل والحسد والحقد، ونقاها من الأنانية والشح والبخل، بل ارتقى ببعض الأنفس إلى درجة الإيثار، كما رأينا في مثل موقف سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبدالرحمن بن عوف المهاجر، فقد عرض عليه شطر ماله ليتملكه، كما عرض عليه أحدى زوجتيه ليطلقها من أجله فيتزوجها، وهو طيب النفس قرير العين.

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) رواه البخاري وغيره.

وكان هذا هو الطابع العام لموقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين، برغم ما ينشأ عادة من عقد بين أصحاب البلد والطارئين عليهم، وبرغم كيد اليهود، ودسائس المنافقين. ولا عجب أن سجل الله في كتابه هذا الموقف الخالد لهذه الجماعة المؤمنة بقوله: (والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يُحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صُدورهم حاجة مما أُوتوا، ويُؤثِرون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصة، ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون)(١).

مبدأ المساواة الإنسانية:

وأما مبدأ المساواة الإنسانية الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه: أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان، لا من أي حيثية أخرى، الإنسان من أي سلالة كان، ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، وبين لون ولون، مسقطاً كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية. يقول القرآن: (يا أيها الناسُ إنّا خلَقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعوبًا وقَبائِل لتعارفُوا، إن أكرمكُم عند الله أتقاكُم، إنَّ الله عليم خبير)(٢).

وقد خطب النبي ﷺ الناس بمعنى هذه الآية في حجة الوداع في أوسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(٣) وفي الحديث الآخر: «الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب»(٤).

الإنسان من أي وطن كان، وأي بلد كان، بلا فرق بين وطن ووطن

---

(١) الحشر: ٩.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) رواه البيهقي من حديث جابر وقال: في أسناده بعض من يجهل. كما في الترغيب.
(٤) رواه أبو داوود، والترمذي، وحسنه البيهقي.

وبين إقليم وإقليم فالبلاد كلها أرض الله، والناس كلهم عباد الله،وبهذا تسقط كل ألوان العصبية الاقليمية، والوطنية التي تعلي أهل بلد على غيره.

الإنسان من أي طبقة كان، دون تفريق بين طبقة وطبقة، وبين فئة وأخرى، فكل الناس سواسيه، وكل المؤمنين أخوة، ولا اعتبار للغنى أو للفقر في تقديم الناس أو تأخيرهم.. بل الواجب إنزالهم منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، دون نظر إلى تلك الاعتبارات.

وبهذا تسقط الاعتبارات الطبقية التي قام عليها كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، والتي أقام عليها بعض الناس فلسفتهم الحاقدة السوداء التي تبني طبقة واحدة بهدم كل الطبقات.

بل الإنسان من أي دين كان، فإن اختلاف الأديان لا يسقط عن المخالفين إنسانيتهم ولا يخلعهم منها، حتى إن النبي - ﷺ - قام لجنازة، فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال: أليست نفسا؟؟ (رواه البخاري)، لا مكان إذن لجنس متفوق ولا لشعب مختار، ولا لطبقة متسلطة، ولا لأسرة لها حق السيادة على غيرها.

قد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم فيكون منهم الآري، والسامي والحامي، والعربي والعجمي.

وقد يختلفون في أنسابهم وأحسابهم فيكون منهم من ينتهي إلى أسرة عريقة في المجد، ومن ينتهي إلى أسرة صغيرة مغمورة في الناس.

وقد يتفاوت الناس في ثرواتهم فيكون منهم الغني، ومنهم الفقير، ومنهم المتوسط الحال.

وقد يتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم، فيكون منهم الحاكم والمحكوم ويكون منهم المهندس الكبير، والعامل الصغير، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس ببابها.

ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر

من قيمة الآخر، بسبب جنسه، أو لونه، أو حسبه، أو ثروته، أو عمله، أو طبقته، أو أي اعتبار آخر.

إن القيمة الإنسانية واحدة للجميع. فالعربي إنسان، والعجمي إنسان، والأبيض إنسان، والأسود إنسان، والحاكم إنسان، والمحكوم إنسان، والغني إنسان، والفقير إنسان، ورب العمل إنسان، والعامل إنسان، والرجل إنسان، والمرأة إنسان، والحر إنسان، والعبد إنسان، ومادام الكل إنساناً فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد.

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس إنقاذاً للجميع، هذا ما قرره القرآن بوضوح: (أنه من قَتَلَ نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكانما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)[1].

شعائر الإسلام تثبت معنى المواساة:

ولم يكتف الإسلام بتقرير مبدأ المساواة نظرياً، وتثبيته فكرياً، بل أكده عملياً بجملة أحكام وتعاليم نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس. من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام، وجعلها الأركان العملية التي يقوم عليها بناؤه العظيم من الصلاة والزكاة والصيام والحج.

ففي مساجد الإسلام ـ حيث تقام صلاة الجمعة والجماعة ـ تأخذ المساواة صورتها العملية، وتزول كل الفوارق التي تميز بين الناس، فمن ذهب إلى المسجد أولاً أخذ مكانه في مقدمة الصفوف، وإن كان أقل الناس مالاً، وأضعفهم جاهاً. ومن تأخر حضوره تأخر مكانه مهما يكن مركزه، ولو نظرت إلى صف واحد من صفوف المصلين لراعك أن تجد فيه الغني بجانب الفقير والعالم بجانب الأمي، والشريف بجانب الوضيع، والحاكم بجوار الخادم. ولا فرق بين واحد وآخر، فكلهم سواسية أمام الله، في قيامهم وقعودهم

(١) المائدة: ٣٢.

وركوعهم وسجودهم. قبلتهم واحدة وكتابهم واحد، وربهم واحد، وحركاتهم واحدة، خلف إمام واحد.

وفي الأرض المقدسة - حيث تؤدى مناسك الحج والعمرة - تتحقق المساواة بصورة أشد ظهوراً، وتتجسد تجسداً تراه العين، وتلمسه اليد فقد يظل الناس في صف الصلاة متمايزين بما يلبسون من أنواع الثياب التي تختلف باختلاف الأقوام، أو البلدان، أو الطبقات، أما في الحج والعمرة فإن شعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمعتمرين، أن يتجردوا من ملابسهم العادية، ويلبسوا ثياباً بيضاء ساذجة لم يدخلها التكلف والتصنع والتفصيل، أشبه ما تكون بأكفان الموتى يستوي فيها القادر والعاجز، والملك والسوقة، ثم ينطلق الجميع ملبين بهتاف واحد «لبيك اللهم لبيك». مبتهلين إلى رب واحد، طائفين ببيت الله الحرام، معظمين لشعائره لا فرق بين سيد ومسود، ولا بين آمر ومأمور.

المساواة أمام قانون الإسلام:

ومن المساواة العملية التي قررها الإسلام قولاً، وطبقها فعلاً: المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام.

فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع[1]، والفرائض ملزمة للجميع، والعقوبات مفروضة على الجميع.

حاولت إحدى القبائل عند الدخول في الإسلام أن تُعفى من الصلاة حيناً من الزمن، فأبى عليها ذلك الرسول ﷺ وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه».

وحاول الصحابة أن يُشَفِّعوا أسامة بن زيد - حب رسول الله وابن حبه - في امرأة من قريش، ومن بني مخزوم، سرقت فاستحقت أن يقام عليها حد السرقة: قطع اليد فكلمه فيها أسامة، فغضب ﷺ، غضبته التاريخية المعروفة، وقال كلمته التي خلدها التاريخ: «إنما هلك من كان قبلكم انهم كانوا إذا

(١) انظر: كتابنا «الحلال والحرام» ص ٣٥-٣٨ تحت عنوان: «الحرام حرام على الجميع».

سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها».

وفي عهود الخلفاء الراشدين رأينا كثيراً من الصور والأمثلة لتطبيق مبدأ المساواة بين جميع الناس، دون تفريق أو تمييز. وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة جبلة بن الأيهم - الأمير الغساني - مع الأعرابي الذي شكا إلى عمر أمير المؤمنين كيف لطمه جبلة بغير حق، فلم يسع عمر إلا أن يحضر جبلة،ويطلب إليه أن يمكن الأعرابي ليقتص منه، لطمة بلطمة، إلا أن يعفو عنه ويصفح، وعز على الأمير الغساني أن يفعل ذلك، وقال لعمر بصراحة: كيف يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة؟

فقال عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما.

ولم يسع الأمير المسكين هذا المعنى الكبير، وخرج من المدينة هارباً مرتداً عن الإسلام الذي يفرض المساواة بين الملك والسوقة أمام شرع الله، وغلبت عليه شقوته فكان من الخاسرين.

ولم يبال عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة، لأن ارتداد رجل عن الاسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادىء الإسلام، كالمساواة. وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ.

ومما نشير إليه هنا كذلك: قصة عمر مع واليه على مصر: عمرو بن العاص، حين ضرب ابنه ابن القبطي متطاولاً عليه بأنه «ابن الأكرمين»، وكيف سافر القبطي من مصر إلى المدينة شاكياً الوالي، وطالباً النصفة والعدل فما كان من عمر إلا أن استدعى عمراً وولده، وأمر ابن القبطي أن يضرب ابن عمرو كما ضربه، ثم قال لعمرو كلمته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟؟!!

ومما يلفت الانتباه ويجدر بالتسجيل هنا، موقف القبطي وسفره من مصر إلى المدينة على بعد المسافة، ومشقة الطريق، وضعف الوسائل، وقد كان هذا

القبطي وألوف أمثاله، يضربون، ويعذبون، ويضرب أبناؤهم، وأهلوهم في عهد الرومان، فما يرفعون بالشكاية رأساً ولا يحركون ساكناً.

ترى ما الذي طرأ عليهم؟ وما الذي غير من نظرتهم، وجعلهم يحسون بالظلم، ويشكون منه، ويركبون الصعب في سبيل الانتصاف لأنفسهم؟؟ إنه الإسلام بلا ريب..، الإسلام أشعرهم بكرامتهم الإنسانية، وأفهمهم أن لهم حقوقاً يجب أن ترعى، مثلما أن عليهم واجبات ينبغي أن تؤدى، وعرفوا أن هذه المبادىء الإنسانية الجديدة ليست حبراً على ورق، ولا مجرد لافتات للدعاية، وإنما هي دين يجب أن يحترم وينفذ.

فلا عجب أن قطع الرجل الفيافي، ليطالب بحقه ويسترد كرامته التي صانها له الإسلام.

وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سقطت درع له فالتقطها نصراني، فعرفها علي معه، فقال: هذه درعي. ولكن الرجل أنكر وادعى أنها ملكه، فلم يملك أمير المؤمنين إلا أن يقول للنصراني: بيني وبينك القضاء، وذهبا إلى القاضي شريح، وبعد سماع الخصمين طلب القاضي من الخليفة بينة على دعواه، أي: شهوداً، فلم يكن عنده، فما كان من القاضي إلا أن حكم للرجل النصراني بالدرع بحكم وضع يده عليه.

ودهش النصراني لهذا الحكم الذي لم يكن يتوقعه فقال: أشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يذهب معي إلى قاضيه فيحكم لي عليه، وهو يعلم أنه لا يكذب أما أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقطت منك فأخذتها. قال: أما قد أسلمت فهي لك!

أي نظام في الدنيا يعامل رئيس الدولة كما يعامل واحد من الرعية، غير الإسلام؟

كيف كانت المساواة في أمم الحضارة عند ظهور الإسلام:

ولا يقدر قيمة المساواة في الإسلام حق قدرها، إلا من اطلع على التاريخ

الأمم عند ظهور الإسلام، وكيف كان التمييز والتفاوت بين الناس، يأخذ أشكالاً حادّة تهون معها كرامة الإنسان. ونكتفي هنا ببلدين شهيرين في التاريخ هما فارس والهند.

ففي بلاد الفرس كانت الأكاسرة ملوك فارس، يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كالآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم.

وكذلك كان اعتقادهم في البيوتات الروحية، والاشراف من قومهم، فيرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم، ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حد لها، ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً.

يقول البروفسور ارتهر سين مؤلف تاريخ (إيران في عهد الساسانيين): كان المجتمع مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها. وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً. وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع.

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية، يظهر ذلك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب.

أما في الهند فيذكر العلامة السيد أبو الحسن الندوي: أنه لم يعرف في

تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال. فقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفقت عليه البلاد، وأصبح قانوناً رسمياً، ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متميزة وهي:

١ ـ البراهمة: طبقة الكهنة ورجال الدين.

٢ ـ شترى: رجال الحرب.

٣ ـ ويش: رجال الزراعة والتجارة.

٤ ـ شودر: رجال الخدمة.

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون:

إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم « البراهمة » من فمه، و « شترى » من سواعده، و « ويش » من أفخاذه، و « الشودر » من أرجله..، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم « ويد » (الكتاب المقدس)، أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات. وعلى (الشترى) حراسة الناس، والتصدق وتقديم النذور، ودراسة « ويد »، والعزوف عن الشهوات..، وعلى « ويش » رعي السائمة، والقيام بخدمتها، وتلاوة « ويد »، والتجارة، والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث.

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات، وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة، فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق. وأن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق، وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم « شودر » ـ من غير جريرة ـ ما شاؤوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده.

وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد «الكتاب المقدس»، هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم أتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش» و «شودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول: «منو» إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره، يفوق الشتري الذي ناهز مئة كما يفوق الوالد ولده.

أما شودر (المنبوذون)، فكانوا في المجتمع الهندي ـ بنص هذا القانون المدني الديني ـ أحط من البهائم، وأذل من الكلاب! فيصرح القانون بأن: من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك.

وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً، فإن ذلك يؤذي البراهمة. وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصا ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب قطعت رجله. وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوي استه، وينفيه من البلاد!! وأما إذا مسه بيد، أو سبه فيقتله لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سُقِيَ زيتاً فائراً، وكفارة الكلب، والقطة، والضفدعة، والوزغ، والغراب، والبومة، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت الموؤودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بنت زوجها المتوفى وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها على اثر وفاة زوجها تفاديا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا.

فليوازن المنصف بين هذا كله، وبين ما جاء به الإسلام، ليعرف الفرق بين الظلمات والنور.

والمهم أن نعلم أن الإسلام نادى بالمساواة نظرياً، وطبقها عملياً، وأقام عليها مجتمعاً حطم كل الفوارق التي تقيم الحواجز بين الناس، من عنصرية ولونية، وإقليمية، وطبقية، كما نرى ذلك واضحاً في صفحات الحضارة الإسلامية، وكما نرى ذلك إلى اليوم في مجتمعات المسلمين، على ما فيها من انحراف عن حقيقة الإسلام.

لقد محا الإسلام من نفوس أبنائه عقد التمييز بين الأجناس والألوان والطبقات، التي سادت مجتمعات كثيرة، ولا زالت تسود مجتمعات أخرى إلى اليوم. إن ملايين المسلمين على امتداد القرون يقولون عن بلال العبد الأسود الذي اشتراه أبو بكر وأعتقه: سيدنا بلال رضي الله عنه، معتزين به ومفاخرين. حتى إن عمر ثالث رجل في الإسلام يقول عن أبي بكر: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي: بلالا.

أما الحضارة الغربية فقد أعلنت المساواة مبدءا وفكرة، ولكنها عجزت عن تحقيقها في مجتمعاتها، ولا زالت مشكلة «التمييز العنصري» حية قائمة، نقرأ عنها ونسمع، إن لم نر ونشاهد - في جنوب أفريقيا وروديسيا وغيرهما من البلاد الأفريقية، وكذلك في الولايات المتحدة الامريكية، التي فرقت بين الأبيض والأسود حتى في مقام التعبد لله، فللبيض كنائسهم المستقلة، كما أن للسود كنائسهم الخاصة.

وقد حدث أن أخطأ رجل أسود فدخل كنيسة من كنائس البيض في يوم، وكان القسيس يعظ ويتحدث، فلمح هذا الوجه الغريب بين الحضور، فلم يملك إلا أن أخرج ورقة مطوية أرسلها إليه، فلما فتحها الرجل الأسود، وجد فيها: عنوان كنيسة السود في شارع كذا..!!

وفي روسيا أحب شاب أفريقي كان يدرس في موسكو فتاة شقراء وأحبته، وغلا مرجل الغضب في صدور بعض الشباب السوفييتي، لا من أجل الحب، فهذا أمر مباح هناك، بل لانتهاك حرمة اللون، وفي اليوم التالي وجدت جثة الشاب الأسود ملقاة في الطريق، واحتج الطلاب الأفارقة بصورة

جماعية، فقابلهم الطلاب الروس بمثلها وهم يقولون في بذاءة ووقاحة: عودوا إلى غاباتكم أيها القردة!!

إن روح الحضارة الغربية ـ ليبرالية كانت أو شيوعية ـ روح تمييز واستعلاء، وليست روح إخاء ولا مساواة.

★ ★ ★